

أن ترحل

إيليو زعيتير

الروح ورافقتك في الزمكان وهي الآن مجرد بقايا ذكريات تتلاشى في أعماقك.

إن حزم الحقيبة هو نهاية فصل ابتداء حين صرت تنام وحدك، هو صراخ بلا صوت على أخيك الذي ارتدى كنزتك من دون علمك، هو قبلة في الهواء أرسلتها لأمك، هو نظرة رميتها باتجاه أبيك الذي يدخن سيجارته عند النافذة، هو عناق وغمضة ودمعة، هو بسملة حزينة ترسمها شفتاك من دون إرادتك، هو تنهيدة ابتدعتها أنفاسك لتنوب عنك في حضرة المكان ولتلقني إشارة الوداع.

الرحيل أشبه بالنوم، هو مماثل للموت، غرق في حلم عميق بلا قعر، فراق بغيض، غوص في عالم آخر، انتقال من زمكان إلى آخر، ولكن من دون نقل شيء سوى رواسب من نفسك وشذرات ستبحث عن يتفاعل معها في العالم الجديد لتشع مجدداً، ولتشكل ذاتك الجديدة. ولكن هيهات أن تتقبل ذاتك الأصيلية هذه الذات الهجينة، فالأجسام الغريبة ستظل عدواً تحاربها بلا هوادة، محاولاً طردها والتخلص منها، فهي شوكة تريد نزعها، ورم تريد استئصاله مهما كلفك من خسارة، ستنادي الأصيلية بأعلى صوتك لتحل محل الغريبة، ستبحث عنها بين الذوات الهائمة في السماء، ستكتب رسائلك القصيرة كي تستجديها الرجوع، ستسأل كل من يعبر بك عنها واللهفة تعتريك، سيحل عليك التعب، سترفع يديك وستنال منك الخيبة، ستجلس وحيداً على المقعد وسترمق المدينة بنظرة أخيرة من نافذة الطائرة المستطيلة وستغمض عينيك.

حريق وألم، دموع وحسرة، ذلك ما ترتب على العدوان الذي اجتاحت الحس والعيون والوعي. هو اجتياح خبيث ابتداء بعد تأمل الحقائق المتسمة أمام باب الغرفة، تلاه خوف من يهاب اللاعودة، جوع من في قلبه شوق يسبق الفراق وحنين متأخر متأخر عن اللحاق.

أن تترك كل شيء وراءك، أن تضع قلمك على الطاولة، أن تتجاهل كتبك التي تنتظر، أن تجعل محاولاتك التي تملأ الورق وحيدة طي النسيان، أن تسمح للغبار بالحلول مكانك على الكرسي، أن تسلم ورودك لخشونة الشمس وترتكها أسيرة العطش، أن تفرغ خزانتك وتهبها للزمن، أن تنسى إبريق الشاي الذي تعودت أن تضعه على النار مساء كل يوم، ألا تقول شيئاً لحبيبك التي لم تعرف يوماً أنها حبيبك، ذلك ما يترتب على أولى خطوات الرحيل.

من زجاج السيارة المتنقلة بين الأحياء وأخبار الراديو المملّة، من الظلال المطبوعة على الأرصفة، من صمت الشوارع المعتمة، من أوجه الكلاب الحزينة التي تنتظر من يعطف عليها بعظمة، تناديك الأصوات التي ما برحت تززع السكون الذي لطالما طلبته، تستحضر الأضواء التي وضعت في تقرير موقفك منها، تشتتم العبق الذي أبي أن يعتقك عندما تفتح الباب كل مرة، ترى الرفيق الذي ينتظرك تحت البيت موجهاً نظريه إلى شبك غرفتك، تسمع الجرس الذي لم يخيبك يوماً. تتذكر ضجيج النهار وأشعة الشمس المتسللة من فراغات الستائر وطعم الشاي الذي لم تذق مثله في أي مكان آخر، تراهم كلهم وقد تعودوا على الدوران مع الحياة، فلا حزن يلامسهم ولا فراق يعينهم، هم محض أشياء مينة قد بثت فيها

إن ما يترتب على الرحيل يفوق الرحيل نفسه...